دعوة الحق

مجلة شهرية تعنى بالدراسات الإسلامية وشؤون الثقافة والفكر

بسم الله الرحمن الرحيم
سبحان الذي أسرى
بعبده ليلا من المسجد الحرام إلى
المسجد الأقصا الذي باركنا حوله لنريه
من آياتنا إنه هو السميع البصير صدق الله العظيم

تصدرها وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية • الرباط • المملكة المغربية

العدد 287
•
السنة الثالثة والثلاثون

جمادى الأولى - جمادى الثانية - رجب 1412هـ
يناير - يبراير 1992م

مع ابن بطوطة في بلاد الهند والسند

(القسم الأول)

للدكتور عبد الهادي التازي
عضو أكاديمية المملكة المغربية
ومدير المعهد الجامعي للبحث العلمي بالرباط

إن من حق ابن بطوطة على معظم بلاد الدنيا أن تخلد اسمه في عواصمها الحافلة، وعلى شوارعها الآهلة، ذلك لأنه لولا ابن بطوطة لدرست معالم تلك الممالك، ولاختفت رسوم تلك المسالك، وإذا كانت المعلومات التي قدمها الرحالة المغربي تظل في مجموعها المصدر والمرجع، فإنه (أي ابن بطوطة) حلق بما قدمه عن الهند من فوائد وفرائد، وإن الذي يزور الهند إلى الآن، ليشعر أنه يعيش مع ابن بطوطة فيما أتحفنا به من حديث عن طريقة تحية الناس، وعن المانكو وعن الكاري والبايا والأرز وقصب السكر... وعن المحارق التي تنصب للهندوس، وعن مدينة دهلي وما تضمه من مساجد ومعابد ومآثر... وعن أصل تَعَوُّدِ البلاد على استقبال الضيوف بمختلف أنواع الزهور، والتزام بعضهم بالاعتماد على النبات فيما يتناولونه من طعام، وعادة الصاري (لباس النساء) إلى الآن، وعن تنظيم البريد...والتشريفات.. مما لم يصدقه المؤرخ المغربي ابن خلدون، ثم الزياني، فأمسيا معا يحملان على رحالتنا ظلما وعدوانا...!

وقد حُبِّبَ إلي أن أقتفي آثار ابن بطوطة بمناسبة زيارتي الأخيرة للقارة الهندية، لقد دخل ابن بطوطة ما يسمى اليوم بالجمهورية الهندية من الشمال عن طريق (بوهير) التي وصلها بعد أن أمضى أياما في (مولتان)، حيث حضر حفل الاستقبال الفخم الذي أعد لقاضي ترمذ قوام الدين، وقد كان ورد صحبة

أهلـه وعشيرته في زيـارة للديـار الهنديـة المسلمة.

لقد سألوا ابن بطوطة عند حدود البلاد عن الغـــرض من زيـارتـــه للهنـد، لما أن السلطان محمد شاه «أمر أن لا يدخل أحد بـلاد الهند إلا إن كـان بـرسم الإقامـة». فأجاب ابن بطوطة: بأنه فعلا يعتزم المقام في خدمـة سيد البـلاد! فلما أخبرهم بذلك، استدعوا القاضي والعدول، وكتبوا عليه عقدا بذلك!

وبمناسبة حديثه عن المآدب التي أقيمت لقاضي ترمذ، والتـي كان له شرف حضور بعضها، ذكـر وصفا لما كـان يُـقَـــدَّمُ من صنوف الطعام، وهنا يتعـرض لذكر خبز الرقاق (PAPAR) الذي لا يخلـو منه مطعم مرموق إلى الآن في كبريات المدن الهندية... ولم يفت الرحالة المغربي - وهو يرتب تلك المآكل - أن يعــرض للأبازيـر والزنجبيل الأخضر والأرز ولقمـة القـاضي، وكل هـذه الأشياء مما يصمد إلى اليوم في حياة الهند اليومية.

وكان مما أثار انتباه ابن بطوطة ظاهرة (الخدمـة) التي تستأثـر بها تقـاليـد تلك الديار، ولا يقصد بالخدمة ما نتعارف عليه مما يـؤديه اللفظ، ولكـن القصد بـالخدمة هو طريقة التعبير عن الإجلال والاحترام... وإذا كان ابن بطـوطة قـد أعطى فكرة عن هـذه (الخدمة) في أثنـاء إقـامته بـالأراضي التـابعة اليـوم للاتحاد السـوفياتي، فإنـه اليـوم يـزيدهـا معنى آخـر اكتسبتـه من البيئـة... وهي - أي الخدمـة - عبـارة عن حط الرأس نحو الركوع.

وقـد وقفت شخصيـا، ومرات متعـددة على هذا النوع من (الخدمة)، وبخاصة عند مَــقْــدَم بعض قادة رجـال الـدين، حيث يقف بعضهم وقد قرن يـديه معا، وطأطأ الرأس... وحيـث يعمد بعضهم إلى حـركة تشبـه أن تـــدل على أنـه يحاول أن يلتقط بيمناه - ومن حوالي ممر مولانا - ما يمكن أن يكـون: هـواء أو نـــورا، ويرفـــع يـده اليمنى تـلك في اتجـاه قلبه ليـمسـح بهـا على صـدره...!

ويلذ للرحالة المغربي أن يتتبع ما يقدم في المآدب بـاعتبـاره أكثر دلالـة على بيئـة الشعـــوب، فيتحـــدث عن عصير النبـــات (الجلاب) الـذي يقدم في البـداية كمـدخل للوجبـة، وقال: إنهم يسمونـــه (الشربة)، ومن المعلـــوم أن كـــلا من اللفظـــين: (الجلاب) و(الـــشربة) معـــروف اليـوم أيضـــا في اللغـــات الأوربيـــة: (Julep) و(Sorbet).

ولم يفت ابن بطوطة أن يذكر ظاهرة ما تزال إلى الآن ملاحظة للغادين والرائحين في الشوارع الآهلة، تلك تنـاول التنبول، أو ما يسمى اليوم (بان) (Pan) بتفخـيـم البـاء، بعـــد تنـــاول الأكـــل، يعتـــبـــرونـــه

مُـهْـضِـمًـا... والتنـــبول في الأصــل نبـات من الفصيـــلـة الفلفــلـيــة يمضـغ ورقــه، لكن هذا الورق اليوم أصبـح بمثابة ظرف لعدة مواد تجعل فيه، منها ذهنيات، ومنها بهارات ومنبهات.

وتقـدم مع التنبـول جــوز الفـوفل أو الأرك (AREC) كما نسميه نحن.

لقد قَـدِمَ ابـن بطوطة مدينــة (أبو هر) أو (أبــو هير) على أنها مـدينـــة صغيرة، حسنة، كثيرة العمارة، وأنها ذات أشجـار، ولكنهـا أشجـار تختلف عما كـان يعهـده ببلاد المغـرب... وكانـت هذه الإشـارة منه مبررا للاستطراد والتخلص للحـديث قليلا عن أشجار القارة الهنديـة وفواكهها، وهو استطـلاع في محلـه، لأنه قـدم للقـارئ في منتصف القــرن الثــامــن (الــرابع عشر الميـلادي) ما يمكـن أن يحس به القــارئ وهو يعيـش في بداية القـرن الخامس عشر الهجـري، أو أواخـر القــرن العــشريـــن الميـلادي.

وهكـذا، فبعـد أن ميَّـز بين حجم النبق المغـربي والنبق الهندي، حيث لاحظ كِـبَر حجم هـذا، وشـــدة حــلاوته، خصـــص فصــلا مــن رحلتـه لموضـــوع الأشجـار والفواكه.

لقـد كان في صـدر الأشجـار والفواكـه التي استحقت منه التقديم، وهو مصيب في ذلك، شجـرة وفــاكهـة العنبـة، (بتسكين النـون)، وقـد لاحظت أن بعض النــاس في بـلاد الشرق يحرفـون النطق إلى (العنبر)، وما تزال كلمة (Ambé) إلى الآن محفوظة في إيـران للتعبير عن هذا المربى اللــذيذ الــذي يستحسن تناوله مع الأرز كثيرا... ويتعلق الأمــر بشجـر المانك المشهــور بـآسيــا وإفريقيا... ويعطيه هنا ابن بطوطة وصفا دقيقا جعله يتحـدث أيضا عما يصنـع منه مـن مربـى يعرف باسـم (الكـاري Curry) الـذي أخـذ شهــرة عالـمـيـــة كمــا هــو معـروف.

لقد قـال: «إن العنبة (أي المانـك) تشبه أشجـار النـارنج، إلا أنها أعظـم أجـرامـا، وأكثر أوراقا، وأوفر ظـلالا... وثمرها على قدر الإجـاص الكبير، فإذا كان أخضر قبل تمام نضجه أخذوا مـا سقط منه، وجعلوا عليـه الملـح وصبــروه كما يصبر الليـــم والليمـون ببـلادنا على نحـو مـا يصبرون الـزنجبيـل الأخضر، وعنـاقيـد الفــلفل، ويأكلـون ذلك مع الطعـام، يأخذون بإثـر كل لقمـة يسيرا من هذه المملوحـات، فإذا نضجت العنبـة في أوان الخريف اصفـرت حباتها، فأكلوها كالتفاح، فبعضهم يقطعها بـالسكين، وبعضهم يمصهـا مصـا، وهي حلوةيمازج حـلاوتها يسير حموضة، ولها نـــواة كبيرة يــزرعـــونها، فتنبث منهـــا الأشجـــار، كما تـــزرع نـــوى النـــارنج وغيرها».

وهكذا يكون ابن بطوطة أول عربي على الإطلاق أعطى وصفا دقيقا لشجر (المانكو)، سواء عندما يخلل، فيقدم كمقبل! أو ينضج، فيقدم كفاكهة في ختام المائدة!

ومن المانكو ينتقل إلى ما سماه (شاكي وباركي)، ويقول:

«إن ثمرها يخرج من أصل الشجرة، فما اتصل منه بالأرض فهو الباركي، وحلاوته أشد، وطعمه أطيب، وما كان فوق الأرض فهو الشاكي، وثمره يشبه القرع الكبير... فإذا اصفر في إبان الخريف قطعوه وشقوه، فيكون في داخل الواحدة بذور تشبه الخيار، بين البذرة والأخرى صفاق أصفر اللون، ولكل بذرة نواة تشبه الفول الكبير، وإذا شويت تلك النواة، أو طبخت، يكون طعمها كطعم الفول...» ويقول ابن بطوطة: «إن شاكي وباركي خير فاكهة ببلاد الهند».

ولاشك أنه يقصد بهذه الفاكهة ما يحمل اسم (Le Jacquier)، ومن المعلوم أن (الجاكيي) هذا جنس شجر من فصيلة الخبزيات، وهو ينبت في المناطق الحارة.

وبعد (شاكي وباركي) يتعرض ابن بطوطة لفاكهة كانت تدعى (تاندو Tendau)، وهي ثمر شجر الأبنوس، وحباته في قدر حبات المشمس، ولونها في لونه كذلك، وهو في غاية الحلاوة، وأعتقد أن ابن بطوطة يقصد إلى ما يسمى اليوم (تشيكو)، وهو فعلا ذو حلاوة بالغة، إلا أن به بذورا تحكي بذور الخروب، تجد في الواحدة ثلاثة بذور أو أكثر.

ومن فواكه الهند ما سماه الجمون، يعني (Djambau)، ويصف ثماره بأنها تشبه حبوب الزيتون، وأن لونها أسود كذلك، ونواها واحدة، وما تزال أطباق هذه الفاكهة تعرض على أبواب الدكاكين في بداية فصل الصيف لديهم، (أعني أبريل - مايه...) إلا أن طعمه لم يكن - بالنسبة إلي - على ما كنت أتوقعه من بريق لونه ولطيف شكله.

وتحدث ابن بطوطة عن النارنج الحلو الذي يتكاثر في الهند، ولكنه لم يغفل عن النوعين الآخرين من النارنج: الحامض والمتوسط بين الحلاوة والحموضة الذي كان يستسيغ تناوله.

ومن النارنج إلى «المهوى» التي قال عن أوراقها: إنها شبه أوراق الجوز، إلا أن فيها حمرة وصفرة، وقال عن ثمرها: إنه يشبه الإجاص الصغير وإنه شديد الحلاوة، وإن في أعلى كل حبة منه حبة صغيرة تشبه حبة العنب، طعمها كطعمه... وهم - يقول ابن بطوطة - يسمون هذه

الحبة أنكور، (Angoûr) وهو لفظ فارسي الأصل على ما نبه عليه الذين تطوعوا بترجمة الرحلة إلى اللغات الأوربية والأسيوية، فأسدوا للتراث المغربي معروفا لا ينسى.

ويعتاد الهنود تجفيف تلك الحبوب في الشمس، وقد وجد فيها رحالتنا المغربي ما يعوض فقدانه للتين الذي كان يتمتع بكميات هائلة منه بشمال المغرب، حيث يقع مسقط رأسه: (طنجة)، ذلك التين الذي قال عنه: إنه لا يوجد ببلاد الهند. ولعله كان يقصد إلى أنه عزيز الوجود، على نحو ما قاله بالنسبة للعنب، وقد شاهدناهما كذلك بالهند.

و(المهوى) التي يذكرها ابن بطوطة تقابل في التعليقات الغربية بكلمة (Bassia Latifolia)، وهي على كل حال ليست ما يقدم للضيف بعد الطعام مما يحمل اسم المخواس (Mukhwas): مجموعة من التوابل والمكسرات المهضمة.

ومما يذكر عن (المهوى) أنه يثمر مرتين في السنة، وأنهم يستخرجون الزيت من نواه، ويستصبحون به.

ومن فواكه الهند ما سماه (كسيرا)، وتقابل في اللغات الغربية بكلمات (Cacîrou, Scripuskysoor)، وقد قال عنها: إنهم يحفرون عليها الأرض، وإنها شبيهة بالقسطل، وهي شديدة الحلاوة.

وقد ختم ابن بطوطة هذا الفصل من الأشجار باستدراك أن شجر الرمان يوجد بالهند على نحو ما هو ببلاد المغرب، إلا أنه يثمر هناك مرتين في السنة... وأفاد أن الهنود يسمونه (أنار Anâr)، وأنه (أي ابن بطوطة) يعتقد أن هذا هو الأصل في تسمية زهر الرمان بالجلنار، لأن جل (Gul) بالفارسية معناها: الزهر، وأنار معناها: الرمان.

وبهذا نرى ابن بطوطة يبرهن على أن معلوماته في الفارسية بلغت بحيث أخذ يستطيع فك الكلمات المركبة، وإعطاء معانيها.

وبعد هذه المعلومات القيمة عن أشجار الهند، يعطي تفصيلات عن جل الحبوب التي تزرع بأرض الهند، سواء منها ما يزرع في موسم الخريف، أو موسم الربيع، حيث إن الزراعة عندهم موسمان اثنان: أحدهما: عندما ينزل المطر في نهاية القيظ: حيث يزرعون (الكودرو Kudhroû)، نوع من أنواع الدخن، وهو أكثرها بتلك البلاد، و(القال ـ Kâl) الذي يشبه حب (أنيلي) المعروف عندنا بالمغرب، و(الشاماخ ـ Panicum Colonum) الذي يصعد من غير زراعة، والذي قال عنه: إنه طعام الصالحين والمساكين، حبوب صغيرة جدا تدق في المهاريس بعد تشميسها، فيبقى اللب الأبيض الذي يصنعون به ـ

مع حليب الجواميس - ما يشبه أن يكون عصيدة، وقد كانت هذه العصيدة من الأطعمة المحببة لدى ابن بطوطة أثناء إقامته بالهند، وربما صنعوا من الشاماخ الخبز أيضا.

ومن الحبوب: (الماش Phoseolus max) الذي وصفه بأنه نوع من الجلبان، ويباع اليوم على نحو ما يباع الحمص المقلي ببعض البلاد.

ومن الملاحظ أن (الماش) يقدم إلى اليوم في بعض جهات العراق، وخاصة منها الجهات الآهلة بالشيعة، وقد كنت أسمع من بعض الزملاء أن تناوله كعشاء مما يساعد على الاستمتاع بأحلام لذيذة!! وقد جرب فصح على نحو ما تردده الأقوال السائرة في المنطقة.

ومن الحبوب المنج (Mung de Clusius) الذي يشبه الماش، إلا أن حبوبه مستطيلة، ولونه صافي الخضرة، وهم يطبخونه بالأرز ممزوجا بالسمن، ويعرف باسم (كشري Kichiry)، الذي يتناولونه يوميا على نحو الحريرة بالبلاد المغربية، وربما كان القصد إلى (الكُشَرِي) الذي يتناوله إخواننا في مصر. وخاصة في الأحياء الشعبية على مقربة من الأزهر، وينطقون به (بضم الكاف وفتح الشين)، ومنها اللوبيا والموت، (بضم الميم)، وهي تشبه الكودرو، إلا أن حبوبه أصغر، وهو من علف الدواب على نحو ما يفعلونه بالحمص الذي يقدمونه كذلك لدوابهم في بعض الأحيان.

ويعطي ابن بطوطة بعد هذا معلومات عن زراعة القمح والشعير والعدس والأرز الذي يزرع ثلاث مرات في العام، وكذا عن السمسم وقصب السكر، ويختم هذا الفصل بوصف أرض الهند بأنها طيبة التربة.

ومن مدينة (أبوهير)، اجتاز ابن بطوطة صحراء في أطرافها جبال منيعة، تسكنها طائفة من كفار الهنود المتمردين على الحكم.

ويفتتم الرحالة المغربي هذا المقطع ليقدم لنا الوضع في بلاد الهند على ما كانت عليه في ذلك العهد: عهد السلطان محمد شاه، النصف الأول من القرن الثامن الموافق للنصف الأول من القرن الرابع عشر.

إن أكثرية بلاد الهند هي ممن لا يدينون بالإسلام على خلاف بلاد السند (باكستان الحالية). لكن من أولئك الهنود - وهم كثرة - يعتبرون من رعايا السلطان، وتحت ذمة المسلمين، يسكنون القرى وعليهم حاكم مسلم يسميه ابن بطوطة العامل الذي تدخل القرية تحت إقطاعه بَيْدَ أن فيهم

عصاة محاربين، يمتنعون بالجبال، وينزلون أحيانا إلى قطع الطريق على المارة.

وما من شك في أن الذي حمل ابن بطوطة على تقديم هذا التنبيه ما تعرض له رفاقه من مداهمة عدد من هؤلاء القطاع للركب الذي اشتبك مع المغيرين عليه في غزوة ضارية أسفرت عن مقتل عدد منهم حملت رؤوسهم إلى حصن أبي بكهر (Baqhar) حيث علقت على جدرانه عظة وعبرة.

ومن حصن أبي بكهر إلى مدينة (أجودهن AJODHAN)، التي كانت بيد الشيخ فريد الدين البذاوني، الذي أنعم عليه سلطان الهند - وكان شيخا له - بإدارة هذه المدينة.

وبانصراف ابن بطوطة من هذه المدينة سمع - لعله لأول مرة في حياته، - بحديث المحارق المنتشرة ببلاد الهند، والمعدة لإحراق الأموات من الهندوس، والواقع أنه حديث بالنسبة للمسلمين غريب، بل إنه مهول.

ولا يستطيع الزائر للهند أن يجد مقارنة بين المقبرة الإسلامية والمحرقة الهندوسية، إلا بأن الأولى تتميز عادة بوجود قطع من اللحد على أبوابها استعدادا لتلبية الحاجيات، بينما توجد عند باب المحرقة أكوام من الأحطاب والأعواد، فيها اليابس جدا، وهو مخصص للأغنياء، وفيها المتوسط اليبوسة، وهو من نصيب الطبقة المتوسطة، وفيها الحطب اليانع الذي يقنع به الفقراء.



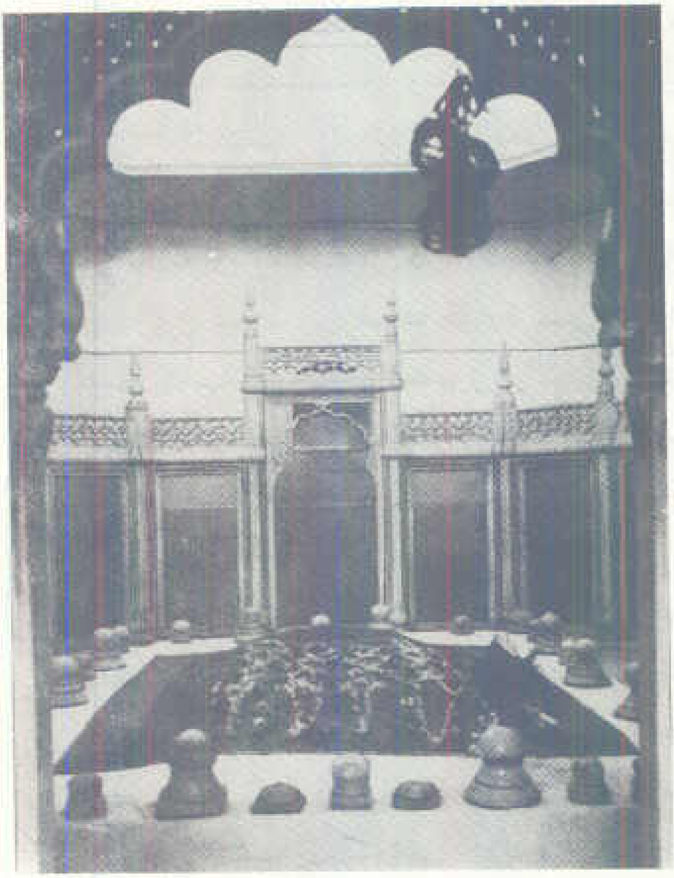
إحدى المقابر الإسلامية في أورنكباد
مقبرة بيبي كا

وقد أغرتني حكايات ابن بطوطة عن مشاهدته لعملية الإحراق، أغرتني على الحضور في عمليات متوالية للإحراق، حيث تتولى أعز شخصية على روح الراحل في الأسرة، تتولى عملية إشعال الحطب الذي يرتب ترتيبا يحيط بالميت، والذي يرش بمادة ملتهبة تختلف قوة وطاقة بحسب المركز المالي أيضا للميت.

ولقد حضر ابن بطوطة عادة إقدام الأرملة على إحراق نفسها مع زوجها الراحل بمحضر البراهمة كبراء الهنود، وبعد إذن السلطان. ويذكر الرحالة المغربي أن أسرة الأرملة التي تهب نفسها للنار تحرز - في نظر الهنود - على الشرف، وتنسب للوفاء، الأمر الذي يدل على أن العادة كانت كمالية، وليست من قبيل الواجب.

وإذا كانت المحرقة التي شاهدها ابن بطوطة «مظلمة، كثيرة المياه، متكاثفة الظلال» حيث نصبت أربع قباب تحتوي كل واحدة منها على صنم، وحفر بين القباب صهريج تظلله الأشجار، فإن المحارق اليوم - على ما شاهدنا - نظمت، بحيث يوجد هناك عدد من الأماكن، فيها العاري، وفيها المسقف، وفيها ما هو منخفض.

وبالرغم من تدرب الرحالة المغربي وتمرسه على رؤية الأهوال، فإن



من مقبرة بيبي كا، في أرانكباد
منظر داخلي

حضوره ذات يوم عملية إحراق الأرامل، أثر على أعصابه، وغشي عليه، حتى اضطر أصحابه لإنعاشه بصب الماء على وجهه.

ومن الطريف أن نسمع ابن بطوطة يتحدث عن بعضهم وقد نزلن ووصلن لتلك القباب، إلى ذلك الصهريج ليتجردن ويتصدقن بما كان عليهن من ثياب وحلي، ويتلفعن في (صاري): ثوب غير مخيط من قطن خشن يربطن طرفه على وسطهن، ويرسلن بطرفه الآخر على رأسهن

وكتفهن، حيث نزلت الواحدة تلو الأخرى في محرقة منخفضة، وصبت عليها كمية من الكنجت (Condjud) (يعني زيت الجلجلان)، حيث يكون في استقبالها عدد من الرجال يحملون حزم الحطب الرقيق، وآخرون يحملون قطعا كبيرة من العود، بينما دأب أصحاب الطبول والأبواق على إثارة الحماس، وتغطية المأساة. وقد تقدمت إحداهن وهي تقرن بين يديها تحية للنار، على العادة الهندية، ورمت بنفسها بين ألسن النيران التي اشتدت برمي بعض الرجال ما بأيديهم من حطب، وتلا هذا، دور أصحاب الحطب الثقيل، ليمنع تحرك الأرملة التي تلاشى صوتها مع ضجيج المشيعين.

ولم يفت ابن بطوطة أن يتتبع رماد الجثت المحترقة، ليذكر أنهم يرمون به في نهر الكنك، يعني (Le Cange)، الذي يقولون: إنه من أودية الجنة، وبهذه المناسبة، يتحدث عما سمعه عن أن بعض الهنود يتقدم ليلقي بنفسه في ذلك النهر، وهو يقول لمن حواليه: «لا تظنوا أني أفعل ذلك لقلة مال، وإنما قصدي التقرب إلى كساي (Krichna).

لقد كان الرحالة المغربي أول من تحدث من العرب عن حالة الإحراق بالهند، وكان أول من تحدث أيضا ـ في مقطع لاحق ـ عن استعانة المحروقين بدهن الصندل، الذي يعوضه اليوم البنزين الممتاز.

الرباط ـ عبد الهادي التازي